(١٠)

عقلاء ومجانين*

نحن فى هذه المجلة جماعة من المجانين، ولأننا مجانين فنحن نريد أن نصلح الكون والمجانين وحدهم هم الذين يفكرون فى إصلاح الكون، والعقلاء يأخذون الدنيا كما هى ويجتهدون فى الفوز منها بأوفر نصيب. المجانين وحدهم هم الذين يبذرون فى الرمال ويحرثون البحر، وكولومبوس عندما قال: سأعبر المحيط وأكشف للناس عالما جديدا وراء بحر الظلمات كان يحرث البحر حرفيا..

وقالوا يومها إنه مجنون، ومضى هذا المجنون يتسول على أبواب العقلاء، ومن بابا لباب وصل إلى أبواب ملوك أسبانيا، وطلب منهم ثلاث سفن ، ثلاث سفن يفتح بها للدنيا عالمًا جديدًا، وأخذوه على عقله وأعطوه السفن الثلاث لابنتا ولارنينيا وسانتاماريا، وبهذه السفن الثلاث حرث الأرض وبذر البذور وأطلع من وراء البحر عالمًا بكرًا خاليًا ، تعدل أرضه وخيراته أرض العالم القديم وخيراته، ومكافأة لكولومبوس على ذلك رموه فى السجن وقيدوه بالاغلال، وفى ظلام السجن وقيوده أدرك كولومبوس أنه بالفعل مجنون، أما العقلاء فهم الذين حصدوا ما حرث وما بذر، هم الملوك والقادة الذين ذهبوا إلى هناك وأنشأوا دولا وإمبراطوريات.

وفى كشف العالم الجديد لم يكن كولومبوس وحده المجنون، لأن الملوك عندما أرادوا حصاد ثمرات هذا الملك العريض لم يجدوا من يعينهم على ذلك إلا المجانين، ألوف بعد ألوف من المجانين بالغنى والثراء خرجوا من بطون القرى فى أسبانيا وانتظموا فى جيوش الملوك وسماهم الناس – ضحكًا عليهم – بالفاتحين أوس كونكيستا دوريس.

---

* نشرت هذه المقالة فى ١٤ نوفمبر ١٩٨٢م .

ذهبوا ياولداه يطلبون الذهب، فلم يجدوا إلا الموت والرمال والجبال والوديان، وفى سهول لابلاما وبتا جونيا مات منهم الألوف بعد الألوف فى القتال مع الهنود، ولكن الذى حصدهم حصدا كانت الأرض، والكونكيستا دوريس أصبحوا سخرية الدنيا لأن معنى اسمهم «الفاتحون» وهم فى الحقيقة أتعس المهزومين، معظمهم ماتوا فى حر الشمس وصقيع الجبال: اقتحموا الصحارى وتوقلوا الجبال وفتحوا البلاد وفى النهاية حصدهم الموت، وعندما تقرأ مآسى أولئك التعساء الذين هلكوا فيما يسمى بالجراف شاكو فى جمهورية الأرجنتين الحالية تتبين حقا أنهم مجانين، مجانين ذهب بعقلهم وهج الذهب الذى لم يروه إلا فى الحلم، ولهذا سموا تلك البلاد ببلاد الحلم المذهب أو الالدورادو».

وعندما رأى العقلاء أن أسطورة الذهب لم يعد لها نفس البريق قالوا لهم: اذهبوا إلى أرض الفضة، وعندما صادفوا نهرا صاحوا بهم: هذا هو نهر الفضة: ريودى لابلاتا ومن ورائه بلاد الفضة أو المفضضة (الأرجنتين) وحتى الفضة لم يجدها التعساء، وفى صحارى البتاجوينا ماتوا بغير قبور. وإلى أيامنا هذه وأنت متجه بالسيارة من لاكوردوبا (قرطبة الأرجنتين) إلى مندوثاترى بقايا هياكلهم العظمية فى الرمال.

وبعد أن هلك المجانين جاء العقلاء: قادة وأدواق وكونتات، وفى عاصمة أقاموها على جثث الفاتحين والهنود أقاموا عاصمة سموها بالنسائم العليلة: بوينوس ايريس، وتربع فيها نائب ملك ينوب عن ملك إسبانيا، جلس على عرش من ذهب فعلاً، كان راتبه الشهرى ألفى ريال ذهبى، والريال إذ ذاك كان من الذهب وكان وزنه ٥٠ جراما من الذهب الخالص سموه بالريال أى الملوكى وكان يسرق إلى جانب الالنين عشرة آلاف فى الشهر، لأنه عاقل، بعضهم ظل فى منصبه عامين اثنين عاد بعدهما إلى إسبانيا واشترى بما كسب نصف محافظة..

ومن بقايا أولئك العقلاء الذين حصدوا ما زرعه المجانين بيوت نبلاء مازالت موجودة إلى يومنا هذا فى إسبانيا، وبعضهم يملك من الأرض الزراعية قدر نصف ما فى مصر كلها، ودوقة ألبا (اوالدوكيساوى ألبا) وهى امرأة حلوة تزوجت من سبع سنوات للمرة الثانية تحمل أربعين لقبا من ألقاب الشرف، فهى دوقة وكونتيسة ومركيزة وبارونة.. وهى ست بيت أيضا، وقد كان هناك متحدث طويل اللسان فى التليفزيون يقول إن دوقة ألبا إذا دخلت إسبانيا من الشمال استطاعت أن تسير فى أملاكها خطا متصلا حتى تصل إلى قاعدة ملكها فى شريش أوميزيت كما يسمونها، والرجل اسمه أزمستوى وقد قال الحقيقة، ولأنه قال الحقيقة فقد طردوه من التليفزيون وحبسوه وقالوا: مجنون وبالفعل كان مجنونا، وهل كان يقول الحق فى أيام الجثراليسيموا فرانكو إلا مجنون؟ وهذا المجنون نجح فى انتخابات الاشتراكيين الأخيرة فى اسبانيا، ونفس زعيم الاشتراكيين فيليب جونثالث ماركث كم قالوا إنه مجنون وكم حبسوه، وقد عوقب صحفى صديق لنا بالطرد من جريدته لأنه ذكر مرة اسم فيليب جونتالت وهذا الصحفى استرد العقل فى السجن وبعد أن خرج أصبح عاقلاً يكتب أخبار مصارعى الثيران وشهيرات الممثلات ويقبض الألوف من البسيستات وأصبح الرجل موسرًا ومرضيًا عنه واشترى فيلا فى حى فلوريا وهو ما يقابل «المهندسين» عندنا وتغديت عنده من سنتين وسألته:

– أليست عندكم فى هذا الحى مشاكل مجارى؟..

– وهل للمجارى مشاكل؟..

– والمياه.. ألا تنقطع عندكم المياه؟..

– ولماذا تنقطع المياه؟..

وسكت والحسرة تملأ نفسى..

وذكرت أن طالبا مصريًا حصل على بكالوريوس الهندسة من جامعة مدريد وأنا مدير بعثة هناك، وعندما أراد العمل فى مصر بعثوا إلينا يطلبون مقررات الهندسة فى إسبانيا لكى يعادلوها ببكالوريوس الهندسة عندنا، وبعد الفحص والدرس والمقارنة والموازنة اعتذروا لأن شهادة الهندسة فى اسبانيا لا ترقى إلى مستوى كليات الهندسة فى مصر، هكذا قالوا فى أسلوبهم الحافل بالتواضع..

□□□

وعلى ذكر الفاتحين الأسبان المجانين كتبت من سنوات مقالات عن الفاتح العربى العظيم قتيبة بن مسلم الباهلى، وكنت أتعجب من بسالة هذا العربى الذى قاد جيوشه وفتح بها بلاد ما وراء النهر كلها (خمس جمهوريات سوفيتية اليوم، وأفغانستان بجبالها التى لا ترام وغربى الصين وهى ولاية ستكيانج اليوم. وهى عند العرب فرغانة وكاشغر. وكنت أقرأ أخباره وأقول: هذا مجنون ولا ريب وقد خاض هذا الرجل إحدى مواقعه الكبرى فى سواد الليل وقتال الليل عرفه المسلمون من أيام الرسول صلى الله عليه وسلم. ولكن ليس على النطاق الواسع وفى الجبال الوعرة كما فعل قتيبة. وفى معركة طخارستان جلس هذا الرجل على صهوة جواده مندثرابدثار من الصوف لف به جسده كله حتى رأسه وفى يده السيف. وجموعه تنقض على الأعداء كالسيل وكلما رأى رجلا من رجاله فى مأزق أسرع وأخرجه منه. ورأى أحد رجاله يرتد ناكصا على عقبيه فقال له وكان يعرف رجاله بالاسم:

– إلى أين يا لكاع والمسلمون يقاتلون؟..

– عدت ألتمس شربة ماء..

– إذن فمن دم أعداء الله تشرب، إما أن تعود أو لا ترى إلا رأسك بتدحرج عند حافر حصانك، وهذا الرجل الباسل قتيبة كان مجنونا ولا شك..

ولم تكن بسالته ولا إيمانه سر جنونه أنه، إنما حسب أن جهاده وحسن منابة يشفعان له، وإذا كانت فتوحه حسنات فى نظرنا فقد كانت فى نظر الخليفة سليمان بن عبد الملك سيئات، وسليمان كان رجلا قبيحا فمىء الهيئة تذريه حواريه ويتضاحكن به. وقد غاظه أن سمع إحدى جواريه تتغنى بشعر فى مدح قتيبة ولكن هذا لم يهمه وإنما الذى أهمه هو الخوف على عرشه، فدبر اغتيال قتيبة، وهذا الخليفة (العاقل) قضى على أربعة من أعاظم المجانين فى تاريخنا ممن قضوا حياتهم على صهوات الخيل فى ميادين الشرف: موسى بن نصير وطارق بن زياد ومحمد بن القاسم وقتيبة، هؤلاء جميعا قضى عليهم عاقل واحد هو سليمان بن عبد الملك، وسليمان وريث عرش شاده معاوية على جثث الشهداء، ومعاوية قتل حجر بن عدى لجريمة عجيبة وهى أن حجرا أنكر أن يسب عليا بن أبى طالب على المنابر لهذا قتل معاوية حجرا بنى عدى ويومها قال قائل:

– والله مازالت العرب تقتل بعد ذلك أبدا..

نبوءة صدقت، أقولها وهى كالسكين فى قلبى، وألوف من العرب قتلوا يعد ذلك دون ذنب ونحن نتفرج، وألوف من الفلسطينيين ذبحوا تحت بصرنا فى المخيمات ونحن ١٥٠ مليون عربى لا نملك أن نرفع يدا..

ومن الذى قتلهم؟ كلب من كلاب العرب يسمى سعد حداد، يسند ظهره إلى إسرائيل وينادى بتحرير لبنان لا من الإسرائيليين بل من العرب، وأعجب من ذلك كله أن العرب لم يجدوا لإنصاف أولئك الضحايا إلا الشكوى إلى ولى أمرهم الجديد: بابا ريجان! ووفد عظيم جليل منهم يمضى إلى ولى النعم لكى يستنصره، وولى النعم هذا هو أيضا ولى نعمة إسرائيل وهو حاميها وبانيها وهو الذى يهديها الطائرات والصواريخ والقنابل من اليدوية إلى العنقودية.. وهو يعلن فى كل مناسبة أنه يعطى إسرائيل هذا كله لتؤمن نفسها من العرب، وإسرائيل أرسلت سعد حداد ليقتل اللاجئين دفاعا عن

أمنها!! فكيف والله نفهم هذا أو نحل الإشكال؟ وماذا قال بابا ريجان بعد المقابلة والمفاوضة؟ قال إن المحادثات كانت مثمرة وبناءة! وإذا سمعتهم يقولون إن المحادثات – أى محادثات – كانت مثمرة وبناءة فاعلم أنها خيبانة..

فى مذكرات الأستاذ جوذر وهو خادم من خدم الفاطميين، وكان يسمون كبار الخدم بالأساتذة أو الأسطوات، والأستاذ والأوسطى صورتان للفظ واحد، هذا الأستاذ خلف لنا شيئا يشبه المذكرات، وهو يقول فى مذكراته أن عبيد الله المهدى أول خلفاء الفاطميين فى المغرب عندما يئس من أمر دولته فى تونس كان يقول: : والله ما أدرى إن كنت عاقلا بين مجانين أم مجنونا بين عقلاء! وهى عبارة يستطيع كل واحد منا أن يرددها وهو يتأمل أحوال العرب: أغنى شعوب الأرض فى أيامنا هذه وأفقرها فى آن معا. وأعلمها وأجهلها فعندنا والحمد لله ما يقرب من ستين جامعة والأمية عندنا فى تزايد. ونسبة الأمية بين المتعلمين أعلى منها عند غير المتعلمين والأمية مفهوم نسبى. ومن ثلاثين سنة كانت لدينا كلية آداب فى كل منها قسم لغة عربية إلى جانب كلية دار العلوم وهى أم كليات اللغة العربية ولهذا – وبسبب هذه الكليات كلها – فإن شبابنا يتخرج فيها وهو لا يحسن العربية وكبار المسئولين عندنا يصدرون تشريعات ويطبعونها ويعلقونها فى لوحات ثم يكونون هم أول من يخالفونها لأنهم أميون..

وعندنا فى السودان أرض بلا زراع. وفى مصر زراع بلا أرض، وقد توصلنا بعد جهد السنين إلى ميثاق التكامل لكى يذهب الزارع الذى لا يجد أرضا إلى الأرض التى لا تجد زراعا. ولكن الذى حدث ويحدث هو أن السودانيين يهاجرون إلى مصر، ومئات السودانيين الذين كان ينبغى أن يظلوا فى السودان ليشرفوا على تنفيذ التكامل أسرعوا إلى القاهرة واشتروا شققا وسكنوا. والقهوة على تيراس هيلتون القاهرة أطعم منها على تيراس

هيلتون الخرطوم، وهى إذا لم تكن أطعم فهى أرخص وربما كانت خصما على الألفين جنيه ميزانية التكامل. والتكامل فى النهاية طريق ذو اتجاه واحد. وهذا هو تفسير العقلاء، أما تفسير نا عن المجانين فشىء أخر..

والكساندر سولسبنتسين كان فى روسيا مجنونا بين عقلاء. ولأنه كان مجنونا فقد كتب أعاظم الراويات، وكلنا نعرف كلامه العظيم عن سجون روسيا التى سماها بجزر الجولاج..

إنها تحف يحفظها الناس بأرقامها فيقولون جولاج أو جولاج٢ وجولاج٣ هذا الرجل الذى بهرنا أيام كان مجنونا يثقل على صدرنا اليوم بعد أن هرب إلى الولايات المتحدة وتحول إلى ارستقراطى رأسمالى. فقد اشترى – بأموال المجانين – ضيعة مساحتها ٥٠ فدانا فيها غابات وأنهار وشلالات قرب قرية تسمى كافنديش فى ولاية فيرمونت فى شرق الولايات المتحدة. وبهذا أصبح جاراو ندا لأصحاب الملايين أن كنيدى وفان دربيلت ومن فى طبقتهم. والذين يذكرون بإعجاب صفاته الرائعة التى كتبها فى «عنبر السرطان» سينتظرون طويلاً جدًا لكى يقرءوا له شيئًا مماثلاً. لأنه عندما كتب «عنبر السرطان» كان تعيسا مجنونا بالحرية والعدالة والمساواة. كان مجنونا يريد أن يعلم عقلاء الكريملين شيئا من الحكمة، أما اليوم وقد تخطت ثروته المليون بمراحل فهو لن يصل إلى قلوبنا قط، لأنه اليوم غنى، ومادام غنيا فهو عاقل، إنه عاقل بكتب للمجانين، إنه لم يعد بناء يبنى للذين يعيشون فى العراء بل أصبح غنيا ذا ضيعة يعيش على غباء الذين يعيشون فى العراء وعندما يحتاج الإنسان إلى انتظار ثلاثة شهور ليحصل على إذن لمقابلة أديب، فإن هذا الأديب لابد أن يكون قد تحول إلى اقطاعى فى غاية العقل، والعقلاء جدا لا يبنون، إنهم يهدمون ما يبنيه المجانين، وهل هناك أعقل من رجل تجتمع اليوم ٢١ لجنة لإحصاء ما عنده! هو وحده أنشأ امبراطورية مالية شاسعة تمتد

من أسوان إلى الاسكندرية ومن السويس إلى كنج مريوط، وقد أنشأها فى أقصر وقت أو فى (لا وقت) (إن – نو – تايم) كما يقول الإنجليز ونحن نحتاج اليوم لإحصائها إلى ٢١ لجنة تعمل كل الوقت ولسنوات عديدة إن شاء الله، والبوليس يذهب لمعاينة شقة يملكها أحد أبنائه فى مدينة نصر، ويخرج عليهم الشاب بمسدس فى يده، ويحار البوليس لأنه يرى امرأة فى الداخل (غير زوجة الشاب) ثم يضع الشاب مسدسه فى جيبه ويخرج مع عشيقته ويمضيان إلى شقة أخرى طبعا، وهذا كله ليس كافيا للقبض عليه، إنهم يحققون، فلابد أولا من العثور على المسدس، ولابد أيضا من العثور على المرأة، وسينشر إعلان عن الاثنين فى «الاعلانات المبوبة» وستقدم المرأة إلى القضاء من تلقاء نفسها والمسدس فى يدها لأنها مجنونة، وستمتنع السلطات من القبض عليها لأن رجالها عقلاء، ولأنهم عقلاء فلابد أولا أن يعرفوا من أبوها لئلا يتعرضوا لمتاعب، وسيتعرضون لمتاعب أكثر إذا عرفوا من زوجها، ولكل شىء أصوله فى بلد يقول أهله إنهم يريدون الحكم بشريعة الإسلام ثم يقولون لك إن الشريعة شىء والقانون شىء..

والشريعة عاقلة، فلا يبقى إلا أن الذين وضعوا القانون ويطبقونه مجانين أقصد قانون الأحوال الشخصية رقم لا أدرى ماذا سنة ١٩٢٩م..

□□□

أتدرى أى شىء أدهش الأمريكيين عندما نزلوا اليابان محتلين؟.. النظافة! كان الضابط الأمريكى ذو الأربعة نجوم يلقى بعقب السيجارة فى الشارع، فيأتى رجل يابانى بدون نجمة واحدة ويأخذ العقب فيضعه فى سلة المهملات، كان الضابط الأمريكى يدخل المطعم فيأتى خادم يابانى فيخلع حذاءه ويلبسه جوربا نظيفا، ويأخذ الحذاء فينظفه ويلمعه ويضعه عند الباب..

كانت القيادة الأمريكية تستأجر قطارا لنقل جنود أمريكيين، فإذا أعادوه أخذ اليابانيون العربات ونظفوها وبخروها ولمعوها وأعادوها إلى

المحطة لتكـون صالحـة لركـوب اليابـانيين، والسـائح الأمريكـى يمـد يـده بالبقشيش لليابانى الفقير فلا يمد اليابـانى يـده لأنـه أغنـى مـن الأمريكـى بكرامته وعزة نفسه، حكيت هذا لشيخ عرب عظيم فى نزلـة السمان فقـال لى: مجنون! وهل يرفض البقشيش إلا مجنـون!؟ هـا نحـن أولا نمـد يدنـا طول النهار ونشحذ البقشيش ولولاه لما كنا شيوخ عرب قد الدنيا..

هل تصدق أننا أيام أجدادنا المصريين القدماء كنا أعـز علـى أنفسنا مـن اليابانيين؟ يحكى هيرودوت أن اليونـانى كـان إذا وفـد علـى مصـر ودخـل متجرا لمصرى قام المصرى وفرش له قماشـة نظيفـة يجلـس عليـها حتـى لا يتسخ المحل، وبعد أن تنتهى الصفقة ويخرج البونانى يمضـى المصـرى إلى جرة ماء ويغسل يديه فى طشت حتى يزيل منها قـذر اليونـانى، واشـترى هيرودوت أوزة من مصرى، فرجاه المصرى أن ينتظـر، ثـم أخذهـا وذبحـها داخل بيته وغلاها فى الماء ونزع ريشها ونظفـها حتـى صـارت فـى بيـاض القطن ثم لفها فى كتان أبيض وناولهـا لهـيرودوت، وعندمـا أراد هيـودوت طهوها فى بيته ظن خادمه أنها من المرمر الأبيض لنظافتها..

واليونانيون الذين كـانوا يحسـبون أنـهم أنظـف الأمـم وأعلاهـا حضـارة شعروا عندمـا دخلـوا مصـر أن أمامـهم سـنوات طويلـة ليصلـوا إلى مسـتوى المصريين فى الحضارة، وكان اليونانيون إذا كتبوا شيئا بالحبر رشـوا عليـه التراب ليجففوه، فإذا بالمصريين يرشون عليه مسحوق الطباشير الناعم لأنـه أنظف، فإذا جف الخطاب أو الكتاب نفضوا الطباشير فى منفضـة حتـى لا تتسخ الأرض، وكان اليونـانيون يغسـلون أيديـهم بـالزيت: يغمسـون فيـه أيديـهم ثـم يزيلـون الزيـت بظـهر السـكين وكذلـك كـانوا يفعلـون عندمـا يستحمون فعلمهم المصريون أن يغسلوا أيديهم بالماء والنـورة. وهـى مسـحوق أبيض خشن يزيل ما على اليد والجسد وعن المصريين تعلم اليونانيون إنشاء الحمامات، فنحن ياللعجب! اخترعناها وكـان اليونـانى يطلـق شـعره

فيمتلئ بالقمل، أما المصرى فكان يحلق رأسه بالموس حتى يغسلها وقتما يشاء، كما يغسل يديه، وحتى فى القبور كانوا يضعون مقشات الريش لكى ينظف الميت مكانه عندما يبعث حيا فى رأيهم، وهوارد كارتر عندما دخل قبر توت عنخ آمون لم يجد فى غرفة الدفن ذرة تراب، وعندما رأى المقشة ظنها مروحة، هذا بعض ما أدهش أهل الغرب عندما اكتشفوا قبر توت عنخ آمون سنة ١٩٢٢م. وقد تعلموا عند ذلك درسا: وهو أن النظافة بداية والحضارة نهاية، فلا حضارة بلا نظافة، لهذا أمر الإسلام المسلمين بالنظافة والوضوء خمس مرات فى اليوم وبالاستحمام من الجنابة وبعدم ملامسة أى قذارة، والإسلام نص على ذلك لأنه حضارة، ورسول الله كان لا يلبس الثوب إلا مغسولا – فإذا كان أبيض بدا ناصح البياض، ولقد أهداه رجل ثوب حبرة من الصوف فلم يأخذه لأنه لم يعرف كيف يغسله كل مرة قبل أن يضعه على جسده الطاهر.

وعندما قلت لطبيب عظيم ورئيس مستشفى عندنا ظننى مجنونا لأنهم – هم الأطباء العقلاء – يهشون الذباب بمروحة فى غرفة العمليات ويفتحون بطون الناس دون تعقيم ويقولون إنهم يفعلون ذلك دون أن يشكوا أى مريض، والمريض الذى يجرون له العملية بهذه الطريقة لا يشكو أبدا لأنه يموت على منضدة العمليات، والموتى عندنا إذا كانوا فقراء خرجت جثتهم من الباب الخلفى إما إلى تاجر الجثث وإما إلى المشرحة فى «زينهم» لكى تباع بالقطاعى للتلاميذ أو تدفن فى مدافن الصدقة، وفى مدافن الصدقات لا يدفن فى الغالب شىء، لأن الحانوتى أثبت أنه من بين من يستحقون الصداقات فهو يأخذ الجثث ولا تدرى ماذا يعمل بها، ولكن مؤلفا معاصرا كتب رواية يقول فيها إن الحانوتية عندهم عمارات ومادام الحانوتى لا يتسلم إلا الجثث فمن ها هنا تأتى العمارات.

وأعود إلى المصريين والنظافة فأقول إننى لا أصدق ما أرى، والناس المحترمون عندنا يشترون السيارة بمبلغ يتراوح بين ٢٥ و٣٠ ألف جنيه

ويستأجرون غلاما هو فى ذاته قطعة من القذارة ليغسلها بماء فى لون الحبر ثم يوقفونها بين كومى الزبالة على جانبى قيلا فيها ٥٤ غرفة..

وعندما أقرأ فى مجلة ألمانية أن سائحا ألمانيا يقول عن القاهرة إنها مدينة تختنق فى قذارتها:

□□□

فإننى أعتبر ذلك إهانة قومية وأمضى بالمجلة مع الترجمة إلى مسئول كبير عن القاهرة فلا يجد فى ذلك أى غرابة ويقول: لقد زرت بلادهم عشر مرات ووجدت شوارعهم أقذر من شوارعنا وهذا معقول لأن سيادة عندما يزور ألمانيا أو أى بلد من بلاد الغرب لا يتجول قط فى الشانزليزيه أو كورفوستن دام – شتراس أو الفيافينتو بل يتجول فى الشوارع الخلفية والحارات والأزقة وإلا فكيف يكون قد زار الغرب إذا ذهب وتفرج على شوارع نظيفة ثم عاد ولماذا هو سافر إذن؟ وأين ذكريات المغامرات وفيم يضيع بدل السفرات؟..

ووصلنا مرة إلى لندن فى وفد محترم أو هكذا حسبت، وبعد أيام اقتادنا المندوب التجارى إلى محل تجارى وقال إنهم يبيعون الصوف الإنجليزى فيه بأرخص الأسعار، وأنظر إلى اللافتة فأجد أن البائع يسمى ليفى بلومنكول، وكنا أيامها على أشد العداء مع إسرائيل، وألفت نظره إلى أن هذا المحل يهودى وأمضى أردد على مسامعه ما كانت الدعاية المصرية تقول أيامها من أن تجار اليهود فى أوربا يكسبون البنسات منا ويشترون بها الرصاص ليقتلوا أولادنا، فحسبى الرجل وكل من كان معنا مجنونا، وهل من العقل فى شىء أن تشترى القماش بخمسة جنيهات للمتر إذا كنت تستطيع أن تشتريه بخمسة جنيهات إلا شلنين؟ وهؤلاء العقلاء ذهبوا يقودهم المندوب السياحى إلى أغلى صندوق تتعرى فيه الفتيات وهذه هى الذكرى العظيمة التى عاد بها كل من هؤلاء العقلاء..

□□□

تفرجت مرة على مسرحية دائرة الطباشير لبرتولت بريخت ولم أفهم شيئا، ثم شرحها لى صديق وقال: إن المسرحية تتلخص فى سؤال واحد: هل المجانين هم الذين يقفون داخل دائرة الطباشير أو الذين يقفون خارجها؟ والسؤال يظل دائما دون جواب لأنهم يقولون إن بريخت كان مجنونا يقرؤه العقلاء، ويومها أيقنت أن برتولت بريخت أعقل العقلاء لأنه يبيع هذا الكلام الفارغ بفلوس، والمجانين هم الذين يدفعون الفلوس، وحكمة هذه المسرحية الهائلة قرأتها فى نكتة فى كتاب مطالعة أسبانى عندما كنت أتعلم الأسبانية، والنكتة تقول إن مجنونا كتب على باب مستشفاه ليس كل من بداخله مجانين ولا كل الذين خارجه عقلاء..

وإذا كان الفارق بين العقلاء والمجانين لم يتضح لك بعد فاقرأ العناوين التالية التى نقلتها من صفحات الصحف:

- فدان الطماطم أعطى ١٢٠ طنا فى القليوبية..
- فدان الفراولة أعطى ٢٣ جنيه فى الاسماعيلية.
- فدان الفاصوليا أعطى ألفى دولار فى تسعين يوما.
- محصول المانجو سيتضاعف ٨٠ (ثمانين) مرة.
- فدان النخيل أعطى ٣٥ جنيه فى أسوان..
- الأراضى المستصلحة يتجاوز إنتاجها الحدية فى العام الأول.
- مساحة الأراضى التى ستستصلح فى السودان بعد التكامل ٢٠٠ مليون فدان (مساحة السودان كلها حوالى ٢ مليون كيلو متر مربع).
- مشروعات نهائية لزراعة أرض سيناء بالكامل.

واحد من اثنين: إما أن الكاتب مجنون وإما أن القارئ مجنون وإما أن كلهما مجانين..